المحاضرة الرابعة في قضايا النص الشعري القديم

- النزعة القبلية في الشعر الجاهلي

(العرب الشماليُون)

ب/ العرب الشماليُون:

أمّا العرب الشماليُون فأهَمُ قبائلِهم هم القرَشيُون بمكة، وثقيف بالطائف، وعبد القيس في البَحْرين وبنو حَنِيفة في اليمامة، وتميم وضبّة في صَحْراء الدّهناء، وبكر ذات العشائر الكثيرة الممتدّة من الشمال الشرقي للجزيرة إلى اليمامة والبحرين، وإلى بَكرٍ يرجع بنو حَنيفة، وبنو عِجْل، وشَيْبان، وذُهل.

كذلك من قبائل الشمال تغلِب، وأسَد، وكِنانة، وهُذَيل بالقُرب من مكة، وقيس عيلان في نجْد، وأهمُ عشائرها وقبائلها هوازِنُ وسليم وعامر ومُزَينة وغَطفان، و الفرعان الكبيران عَبْس وذبْيان.

وقد كان العرَب في الجاهليّة يتمسّكون بهذا البِناء القبَلي الذي يقوم على أساس اشتِراك أبناء القبيلة في أصلٍ واحد وموطنٍ واحد، وهو موطنٌ متنقِل مع المراعي، كذلك اشتراكها في أعرافٍ وتقاليدَ واحدة تتمسّك بها تمسُكًا قويًا؛ حيث يوثِق الصِلة بين أفرادها العصبيّة القبليّة.

وقد كان يَجْمع بين عددٍ كبير من القبائل مُعاهدات الأحلاف التي لعبَتْ دَورًا كبيرًا في تكوين القبائل؛ إذْ كانت العشائر الضعيفةُ تنضَمُ إلى العشائر القويّة الكبيرة؛ لِتَحميها وتردّ عنها العدوان،وعندما تقع الاختلافات والفُرقة في التنافس على الماء و الكلأ في دارٍ مثل هذه التّحالفات، وتتقوّى القبائل بعضُها ببعض.

وما أن تدْخل القبيلة في حِلف، حتّى يُصبِح لها على أحلافها كلُ الحقوق؛ فهُم يَنْصروتها على أعدائها،ويَردُون عنها غائلة غيرها مِن القبائل، وقد يَحْدث أن تنفصِل بعضُ قبائل الحِلف؛ لتنضمّ إلى أحلافٍ أخرى، تُحقِق من خلال ذلك مصلحةً بِعَينها، ومِن ثمّ كان هناك دائمًا أحلافٌ تضعف، وتحلُ محلها أحلافٌ أخرى.

وأصل الحِلف من الحَلِف- بفتح الحاء، وكسر اللام - بِمَعنى اليمين؛ فقد كانوا يُقسِمون أيمانًا على عهودهم، وكانوا ربّما غمَسوا أيديَهم في طِيب ،أو دمٍ عند عَقد هذه الأحلاف، ويقولون: "الدّم الدم، والهَدْم الهدم،لا يَزيد العهد طلوع الشّمس إلا شدًا، وطول اللّيالي إلا ً مدًا"، وربّما أوقدوا نارًا عند تحالُفهم، ودعَوا الله على مَن ينكث العهد بالحرمان مِن مَنافع الحلف.

ومِن الأحلاف المشهورة في مكة: حِلف المطيبين، وفيه تعاقدَ بنو عبد مناف،وبنو زُهْرة، وبنو تميم، وبنو أسَد ضدّ بني عبد الدار وأحلافهم، ويُقال: إنهم غمَسوا أيديَهم في جَفْنة مَملوءةٍ طِيبًا.

ومن الأحلاف المشهورة: حِلف الفضول، وفيه تحالفَتْ قريشٌ بقبائلها على ألا يَجِدوا بمكة مظلومًا، إلا ً نصَروه، وقاموا معه حتّى تردّ مظلمتُه، وقد حضرَه النبيُ - صلّى الله عليه وسلّم.

ومن أحلافهم المشهورة: حلف الحمس بين قريش وكنانة وخزاعة وحلف الرباب

، بين قبائل ثوْر وتيْم وعكل وعديّ، وحلف عَبْس وعامر ضد ذُبْيان، وأحلافها من تميم وأسَد.

وقد كان للقبائل العربيّة مجلسٌ يضمُّ شيوخَ العشائر، يَنْظرون فيه شؤونَ قبيلتِهم، وكل فردٍ يَسْتطيع أن يَحْضره وأن يتكلّم فيه ولم يكن له موعدٌ محدّد ولا مكان محدّد، وكلّما حزبَ أمر أو جدّ شأن، تناقشوا فيه وتحاوروا، ورُبّما قام بعضهم خطيبًا أو شاعرًا أو منشِدًا، وفي أثناء ذلك رُبّما أدلى شيوخُهم وحُكماؤهم بخلاصة تجاربهم في الحياة.

وما يَصْدر عن هذه المَجالس يُذعِن له أفرادُ القبيلة، ولا يكاد يشذّ عنهم أحد وغالبًا ما يتَقدّم شيوخَ القبيلة شيخٌ مُجرّب كبير، هو سيّد القبيلة، له حِكمةٌ وحنكة، وسداد في الرّأي، وسَعَة في الثّروة، وهو الذي يقود حروبَ القبيلة، ويقسم غنائمها، مستأثِرًا منها بنصيبٍ كبير، يتَناسب مع موقعه، يقول الشّاعر:

لَكَ المِرْبَاعُ فِينَا وَالصّفَايَا
وَحُكْمُكَ وَالنّشِيطَةُ وَالفُضُولُ

كما أنّ شيخ القبيلة يَستقبل الوفود، ويَعقِدُ الصُلحَ والمُعاهداتِ والأحلافَ، ويُقيم ولائم الضِّيافة، على أنّ سيادة شيخ القبيلة لم تكن سيادةً واسعة، وإنما هي سيادة رمزيّة، ولكنه - على أيّ حال - شخصٌ ألمعي، حنّكتْه التّجارب، وغالِبًا ما ورث سيادته عن آبائه حتّى يتمّ له الحسَب الرّفيع، وليس له أيُّ حقوقٍ سوى توقيره.

وكلُّ أفراد القبيلة جميعًا يضَعون أنفسهم في خدمتها وخِدْمة حقوقها، كما أنّ القبيلة من جانبها تُعطي لأبنائها نفسَ الحقوق؛ فهي تنْصرهم ظالِمين أو مَظْلومين، وتسمع لهم في شكواهم دون طلبِ البُرهان على ما يقوله ابنُ القبيلة، وما يدّعيه من حقوقٍ لغيره:

لا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ
فِي النّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا

ويقول دريد بن الصمة :[1]

وما أنا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

ولهذا فحَسْب أحدِهم أن يَستغيث بقبيلته، فإذا السُيوف مشرّعة، وإذا الدّماء تسْفح لأبسط الأسباب وأهوَنِها.

وقد تحوّلوا- بسبب اختِصامهم على المراعي- إلى كتائب حربيّة؛ فكلُّ قبيلة مستعدّة للحرب والإغارة والغَزْو على مَن حولها مِن القبائل؛ ولذلك كانت الشّجاعة مثَلَهم الأعلى؛ فهم دائمًا يفتخرون ببطولاتهم، وبِعَدد مَن قُتِلوا في حروبِهم؛ مِمّا يَدور في أشعارهم.

في هذا الجوّ القبَليّ والحياة القبليّة، نشأ الشِّعر الجاهليُّ ونما وازدَهَر، فلم يكن الشُعراء إلا أفرادًا من هذا المُجتمَع القبليّ، يُمارسون حياتهم، ويقولون شِعرَهم وفقًا لهذه التقاليد، فعليهم أن يَقفوا فنّهم الشِّعري على مَجْد القبيلة ومَفاخرها؛ دِفاعًا عن كرامتها وشرفها، ودَوْدًا عن حِماها وحُرماتِها، وحَطًّا من شأن أعدائها، وهجاءً لهم يَنْشر مَخازِيَهم في المَحافل وبين القبائل،وكان نتيجة لذلك أنْ قام ما يسمّيه بعضُ الدّارسين: "العَقْد الفنّي" بين الشّاعر وقبيلته، وهو ما يفرض على الشاعر ألا يتكلّم

في شِعره عن شأنه الخاصّ إلا ً بقدْر ما يكون تمهيدًا لكلامه عن قبيلته يتحدّث باسمها، ويجعل من شعره سجِلا ً لِحياتها، ومن لسانه لِسانًا لها يعبّر عن آلامها وآمالها ، ويسجّل الخطوطَ العامّة لسياستها، ويُعلِن عن أهدافها وغاياتها، وفي مقابلِ ذلك تمنحه القبيلةُ لقب "شاعر القبيلة"، فتتحمّس لشعره وتتعصّب له وتحرص على حفظه وروايتِه في كلّ مقام، ومن هنا كانت مَنْزلة الشّاعر في قبيلته منزلةً رفيعة لا تقِلّ عن منزلة الفارس فيها؛ ولذلك كان من أرفع التّمجيد أن يحمل الفردُ في القبيلة لقبَ شاعر القبيلة وفارسها؛ حيث يجمع بذلك أهمّ مهمّتين تحتاج إلَيْهما القبيلة.

ومِن هنا ظهرَتْ طائفةٌ شعراء القبائل، وكانوا يُشكِلون الغالبيّة العُظْمى من شُعَراء الجاهليّة، ولعلّ هذا هو ما جعَل القبيلة عندما يَنْبغ فيها شاعرٌ تعيش عيدًا من أعيادها، وعُرسًا من أعراسها، فتمدُّ الولائم وتقدّم الأطعمة، وتُقام الحفلات، ويتبادل أفرادُ القبيلة التّهاني، ورُبّما دعَوا لهذه الحفلات القبائلَ المُجاورة من أحلافهم، حتّى تكون الفرحةُ عامّة في وجود هذه الوفود

عاش الشاعر إذًا في ظلّ قبيلته دائرًا في ركابها، سائرًا في فلكِها، مُدافعًا عنها، مُحمِّسًا للقتال في أيام القتال، مسجِّلا ً انتصاراتها إذا انتصرَتْ، مخفِّفًا عنها لواعجَ الهزيمة إذا هُزِمَت، داعيًا لمعركة الثّأر، راثيًا لأبطالِها، مُمجّدًا لهم.

التهميش

1- دريد بن الصمة : ديوان دريد بن الصمة ، تحقيق عمر عبد الرسول ، دار المعارف ،القاهرة ، ص:62